ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
ينبع الصناعية
الهيئة الملكية بينبع
إدارة التعليم العام بينبع

عنوان البحث

التجديد في لزوميات المعري
(دراسة وصفية تحليلية)

إعداد الباحث
خالد بن أسيمر البلوي

المؤتمر الدولي العاشر للغة العربية

دبي – الإمارات العربية المتحدة

1446هـ - 2024م

المقدمة :

الحمد لله العليم المنان ، خلق الإنسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على خير ولد عدنان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفصح الناطقين وأبلغ المتكلمين ، وعلى آله وصحبه نجوم الهدى وحملة راية العلم والعرفان ، وبعد :

فاللغة العربية لغة عريقة ، وخدمتها عمل جليل ، والأدب العربي فرع من دوحتها العظيمة ، وهو فَنٌّ ينبع من مواهب إلهية منحها الله تعالى لبعض خلقه وحرمها آخرين .

ويقف العصر العباسي شامخًا كالطود بين عصور الأدب ، فهو عصر تفجرت فيه ينابيع المعرفة وتَعَدَّدَتْ مشاربها ، فبلغت فيه العلوم أوج نضجها ، ولهذا فهو بحق عصر ذهبي من حيث نضج العلم والأدب .

والصراع بين التقليد والتجديد صراع يَمْتَدُّ إلى زمن بعيد ؛ لأنه يُعَبِّرُ عن معنى الحياة ومحاولة الإنسان التكيف مع بيئته ومشاكل عصره ، ويشتد هذا الصراع في فترات التطور الاجتماعي والسياسي وما يصحبها من تطور فكري بسبب انقسام المجتمع فريقين يتبادلان الريبة والظنة : فريق يندفع في تطوره ويغلو في تصوره المعاصر ، فيحاول التَّحَلُّلَ من كل ما يَمُتُّ إلى القديم ، وآخر يَتَشَبَّثُ بالماضي بكل ما لديه من قوة مفضلا الانطواء في عالمه ، يَجْتَرُّ ما لديه من زاد فكري . والقديم والجديد عنصران مهمان من عناصر الحياة ، فليس هناك جديد بلا قديم ، ولا يُعْرَفُ قديم بغير جديد ، والتجديد لا يعني التغيير المطلق ، بل يعني حدوث تَطَوُّرٍ في بعض العناصر ، مع بقاء الهيئة الأصلية والأساس القديم ، ولا تصح الحياة النفسية لمجتمع إلا بالتمازج والتفاعل بين القديم والجديد .

وأبو العلاء المعري شاعر له وزنه في ديوان الشعر العربي وبين فحول شعرائه ، وهو مدرسة لدارسي اللغة العربية وآدابها ، فلا يدخل أديب أو شاعر في زمرة الأدباء أو الشعراء إذا هو لم يمر بهذه المدرسة يعيش فيها زمنًا – طال أو قصر – ناظرًا ودارسًا ومتزودًا لشعر أبي العلاء المعري .

ويُعَدُّ المعري آخر عمالقة الشعر القديم فقد ارتفع بشعره إلى مستوى إنساني رفيع عن طريق المزاوجة النادرة بين الفن والفلسفة ، فكان شعره طريفًا شكلا ومحتوى ، ولَعَلَّ تَمَيُّزَهُ من – بين أدباء العربية القدامى وعدد من المحدثين – بالنَّزْعة التَّأَمُّلِيَّة ، وموقفه من الحياة والناس إلى جانب قِلَّةِ اهتمام القدامى والْمُحْدَثِينَ بأدبه بالقياس إلى ما أولوه شعراء آخرين كأبي تمام والبحتري والمتنبي هذا الذي دفعنا إلى الوقوف عند أدبه بما يَتَضَمَّنُهُ من أفكار جريئة وآراء جديدة .

لقد كان حلم المعري إنسانيًّا إلى درجة مثالية ، فلقد حلم بصفاء البشرية ، وأدان كل ما يُعَكِّرُ هذا الصفو ، وهاجمه في شعره ، وفارقه في نهج حياته ، ودفعه هذا كله إلى التجديد في الشعر فكانت دواوينه أبعد عن الأغراض التقليدية بل كلها حكمة ونقد وإصلاح ، وأمّا تجديده في الأشكال فحدث ولا حرج ، فقد قال يومًا :

وإني وإن كُنْتُ الأخيرَ زمانُهُ لآتٍ بـمـا لـم تَسْتَطِعْـهُ الأوائـلُ (1)

و(لزوم مالا يلزم) ديوانه الذي نظمه بعد العزلة ، وهي الوثيقة الدقيقة التي سَجَّلَتْ في صدق خلاصة فكر المعري ومواقفه من الحياة والكون ، وهي أيضًا الصورة الواضحة التي تحدد معالم مذهبه الفني الذي استقر عليه بعد عزلة إذ استطاع أن يمزج بين الفكر والإحساس ، وأن يمزج بين العاطفة والصورة والأداء اللفظي بصورة جعلت القصيدة نموذجًا فنيًّا جيدًا . فالشعر عند المعري وسيلة للفكر المتأمل ، وبوتقة يسكن فيها الوجدان الصادق ، وتعبير مشع عن الحقائق ، وهو بذلك يقدم رؤية فكرية جديدة ترتكز على العقلانية والتحليل المنطقي .

اللزوم العلائي :

إنَّ ديوان (لزوم ما لا يلزم) مَصْدَرٌ وَافٍ لكثير من المعارف ، وهو بهذا يتجاوز حدود الشعر ودواوينه ، وهو مصدر للعربية ، نجد فيه الفرائد والنوادر ، إنَّه وثيقة أراد بها أبو العلاء المعري أن يَظْهَرَ على رجال عصره من أهل العلم كافة .

و(لزوم ما لا يلزم) ديوان أبي العلاء المعري الذي نظمه بعد العزلة ، وهو الوثيقة التي سجلت نظرياته الفلسفية ، وأفكاره وآراءه في الموت والحياة ، والدنيا والآخرة ، والأديان ، والمذاهب ، والأخلاق ، والطباع ، والنفس ، والغرائز ، والعقل ، مع دعوة واسعة إلى الزهد ورفض الدنيا ، " والكثير منها لا يلتزم بموضوع واحد " (2) .

حَفِلَتْ لزوميات أبي العلاء المعري بشيء غير قليل من المعاني الجديدة والرؤية الإنسانية الواعية ، فقد أَكَبَّ على مخزونه الثقافي والعلمي ، وغرف من وجدانه وأحاسيسه وفكره ، فطلع بشعر إبداعي جديد كل الجدة ، حيث تفاعلت أفكاره مع شخصيته فتمثلت خَلْقًا جديدًا في كثير من الأحيان . وعَبَّرَ في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) عما تنفعل به نفسه في ظروفها وحالاتها ، كما صَوَّرَ ما يشغل تفكيره تجاه مختلف قضايا الحياة ، فأصبح شعره صورة حَيَّةً لاتجاهه الفكري والنفسي ، فقد ظهرت شخصيته جلية في شعره .

أراد أبو العلاء المعري أن يُوَسِّعَ دائرة الشعر لِتَضُمَّ خطرات الفكر وسعة النظر إلى ما حوله من ملل ونحل وعادات ، وهو في هذا يعتمد على سعة معارفه في علوم عصره وما ورثته من معارف قديمة وحديثة .

مفتاح التجديد :

صَدَّرَ أبو العلاء المعري ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بمقدمة في الشعر وشروطه وقوافيه على أسلوب انتقادي يَدُلُّ على رسوخ قدمه في اللغة والشعر ، وذكر ما التزمه في نظم هذا الديوان ، " ومهما يكن فاللزوميات أول ديوان في اللغة العربية يُؤَلَّفُ على طريقة خاصة يذكرها الشاعر في مقدمته ويُطَبِّقُهَا على أبياته بيتًا بيتًا " (3) ، حَدَّدَ فيها المعري مقاصده وأهدافه وضبط منهجه وآراءه ومواقفه مما لم يعهد عند الشعراء قبله ، وهذه المقدمة تُمَثِّلُ " المهاد النظري لإبداع ظاهرة اللزوم يَضَعُهَا في إطارها ويُحَدِّدُ مفاهيمها وأبعادها " (4) . وتُعَدُّ مقدمة اللزوميات مفتاح التجديد عند أبي العلاء المعري .

نَظَمَ المعري لزومياته هذه بعدما أَنِفَ من سيره في طريق سابقيه من الشعراء . إنه أراد أن يسير في طريق بِكْرٍ جديد لم يسبقه سابق من بدء الشعر العربي حتى عصره ، كما أنه أراد أن يَتَحَدَّى نفسه أو صنيعه في ديوانه (سقط الزند) . إنه أراد بلزومياته أن يَصِلَ ذروة سامقة لم تطأها قدم من قبل فكانت اللزوميات .

إن اللزوميات ليست ديوانًا شعريًّا كغيره من دواوين الشعراء الذين سبقوا المعري أو عاصروه ، وإنما هو كتاب أو مؤلف وضع له صاحبه خُطَّةً محكمةً ، ونَفَّذَهَا بدقة ووعي وإصرار ، يؤيد ذلك أن المعري نفسه قد نعته بـ " التأليف " (5) وبـ " الكتاب " (6) ، كما وصف عمله بأنه تأليف .

نَسْتَقْرِئُ مقدمة اللزوميات التي كتبها المعري ، وهي مقدمة مُتَمَيِّزَةٌ لطولها وغناها ودقتها وتفصيلاتها ، لا نرى لها مثيلا في أي ديوان من دواوين العربية ، لقد بلغ عدد صفحاتها اثنتين وعشرين صفحة تقريبًا ، استغرق الحديث عن المضمون فيها أقل من صفحة في أولها ، ومثل ذلك في آخرها ، وأما الباقي وقدره قرابة عشرين صفحة خَصَّصَهُ المعري للحديث عن الشكل – أي القافية وتفصيلاتها وما إلى ذلك – وقصر الحديث عن

المضمون ، ولَعَلَّ طول حديثه عن القافية وقصره عن المضمون يدلان على هدف المعري في لزومياته وهو التَّحَدِّي في ميدان هندسة الشكل وبنائه بِنَاءً مِعْمَارِيًّا متميزًا ، فإذا أَضَفْنَا إلى هذا أن معاني اللزوميات كانت في تمجيد الله والتحذير من الدنيا والدعوة إلى الزهد والتقشف وانحرافات مدعي التدين والتصوف ، وهذه معان أصولها ليست جديدة وإنما معروفة تجدها لدى كثير من الشعراء قبل المعري مثل أبي العتاهية والمتنبي ولكن كثرها ووسعها لتكون في ديوان كبير خاص بالمعري .

فإذا عَلِمْنَا هذا تأكد لنا رجحان أهمية جانب الشكل على جانب المضمون في اللزوميات ، وبخاصة أَنَّ المعري نفسه وفي آخر مقدمته أشار بوضوح إلى " أَنَّ من سلك في هذا الأسلوب ضعف ما ينطق به النظام لأنه يتوخى الصادقة ، ويطلب من الكلام البرة ، ولذلك ضَعُفَ كثيرٌ من شعر أمية بن أبي الصلت الثقفي ومن أخذ بفريّه من أهل الإسلام . ويروى عن الأصمعي كلام معناه : أن الشعر باب من أبواب الباطل ، فإذا أُرِيد به غير وجهه ضعف " (7) .

ومما يُؤَكِّدُ هذا أيضًا ذلك البَسْطُ الْمُفَصَّلُ الذي كاد أن يكون جامعًا مانعًا لعلم القوافي ، شَرَحَ المعري لوازم القافية من الحروف مثل : الروي ، والتأسيس ، والردف ، والوصل ، والخروج ، وكذلك لوازمها من الحركات مثل : الرس ، والإشباع ، والحذو ، والتوجيه ، والمجرى ، والنفاذ ، كما ذكر أيضا عيوبها مثل : السناد ، والإكفاء ، ثُمَّ تَحَدَّثَ عن خَلْطِ بعض العلماء والشعراء بين الروي والوصل ، وأخطاء ترتيب القصائد في دواوين الشعراء المحدثين ، وقسم القوافي تبعًا لصفاتها إلى ذلل ونفر وحوش ، وشرح ذلك كله بتفصيل ودقة وأيده بالبراهين معتمدا على آراء كبار علماء الشعر والعروض والقوافي والنحو واللغة مثل : الخليل ، والأخفش ، والفراء ، وأبي عبيدة ، وأبي عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، والزجاج ، وابن السراج ، والجرمي ، وغيرهم ، كما أيد ذلك بكثير من الأمثلة من شعر الأقدمين الذي يحتج بأشعارهم مثل : زهير والحطيئة والحجاج وغيرهم ، موضحًا ، محللا ، مقارنًا فيما بينها ومقارنًا لها مع آرائه الكثيرة المتميزة بالعمق والدقة والذوق ، التي نثرها أثناء بحثه وبسطها ودعمها بآراء العلماء وبالحجج العقلية التي تشهد له ببراعة النقد ودقة التحليل ، موافقًا لهم تارةً ، ومخالفًا تارةً أخرى ، ومعللا ذلك كله .

إِنَّنَا نستطيع أن نَعُدَّ مقدمة اللزوميات – من غير مبالغة – كِتَابًا في القوافي لولا أنه لم يذكر فيها تعريف القافية وأضربها مثل : المتكاوس ، والمتراكب ، والمتدارك ، والمتواتر ، والمترادف ، إنه بَسْطٌ كاد أن يكون جامعًا مانعًا لعلم القوافي شمل جزئياته كلها تقريبًا شمولا يجعله يَتَفَوَّقُ على غيره من كتب القوافي من حيث المعلومات وغزارتها وتفصيلاتها .

خَشِيَ المعري أن يقرأ لزومياته قارئ غير مُلِمٍّ بعلم القوافي فلا يستطيع أن يُدْرِكَ مراميه وأبعاد عبقريته وتَحَدِّيه وتَمَيُّزَه ؛ لذلك كتب هذه المقدمة الْمُتَخَصِّصَةَ ، ولقد شَرَحَ المعري العنوان الذي وضعه لديوانه هذا وهو (لزوم مالا يلزم) في مقدمته بقوله : " ومعنى هذا اللقب أَنَّ القافية تلزم لها لوازم لا يفتقر إليها حشو البيت " (8) .

كذلك نَوَدُّ أن نُنَبِّهَ إلى أمر مهم جاء أيضًا في مقدمة اللزوميات وهو قول المعري : " فإذا جاء في الشعر شيء قد اتفق أن يلزم قائله شيئًا غير هذه اللوازم فهو متبرع " (9) ، أي ألزم نفسه بما لم يلزمه به علم القوافي لِيُبَيِّنَ علمه وإمكاناته وقدرته وتميزه وتحديه للآخرين .

وفضلا عن ذلك نَرَى المعري قد وَضَّحَ أيضًا وبتفصيل ما تَمَيَّزَتْ به اللزوميات ، وذلك بقوله : " وقد بَنَيْتُ هذا الكتاب على بنية حروف المعجم " (10) ، وهذا أمر جديد يدل على عجب بالنفس واعتداد بالمقدرة الشخصية لم يسبق إليه أحد من الشعراء المتقدمين أو المحدثين ، وإن كان المحدثون أَقَلُّ بعدًا من المتقدمين في نظمهم على أكثر حروف العربية ، وعلل المعري تقصيرهم – كما كان يرى – بأنهم كانوا "يتبعون الخاطر كَأَنَّهُ هادي الركبان أينما سلك فهم له تابعون " (11) ، ويَقْصُدُ بكلامه هذا الطبع ، حيث أَنْكَرَ عليهم ذلك مع أنه الأصل في الشعر والشعراء

، فالطبع هو الأول والاستجابة له هي الغاية ، والشكل هو الوسيلة ، بَيْدَ أن المعري استبدل الغاية بالوسيلة والوسيلة بالغاية ، وهذا الأمر الذي جعله يَعُدُّ صنيعهم تقصيرًا ودليلا على ضعفهم .

اِلْتَزَمَ المعري ثلاث لوازم ، " وقد تَكَلَّفْتُ في هذا التأليف ثلاث كلف" (12) ، فنظم لزومياته ملتزمًا منهجًا ثابتًا . فالتزم أن يُرَتِّبَ قصائده ومقطوعاته على ترتيب البحور العروضية كما رتبها الخليل ، لا من حيث أوزانها الأصلية فحسب ، ولكن من حيث تشكيلاتها الموسيقية المختلفة ، فبدأ بالبحر الطويل ، ثم انتقل إلى البسيط ، ثم الوافر ، ثم الكامل ، ثم سائر البحور بحسب ترتيبها العروضي ، فكان لا يأتي بوزن من الأوزان على هيئةٍ واحدةٍ ، وفي ذلك تنوع في الأنغام لا يَتَسَنَّى لو أننا قرأنا تلك اللزوميات من بحرٍ واحدٍ ، فمثلا لو قرأنا لزوميته التي تبدأ بقوله :

أُولُـو الفَضْلِ في أوطـانهم غربـاء تَشِذُّ وتَنْأَى عـنهم الـقـربـاءُ (13)

ولزوميته التي مطلعها :

يـأتي على الـخلقِ إصباحٌ وإمساءُ وكلنا لـصروف الـدهـر نَسَّاءُ (14)

ولزوميته التي مطلعها :

تـعـالـى رازق الأحـــيـــاء طُـرًّا لقـد وَهَـتِ المروءة والـحياء (15)

ولزوميته التي مطلعها :

ما لي غدوتُ كـقـافِ رُؤْبَة قُيِّدَتْ في الدهر لم يُقْدَرْ لها إجراؤها (16)

فإننا نحصل على شيء من التنوع ، فالانتقال السريع من الطويل إلى البسيط إلى الوافر إلى الكامل يُعْطِي ثروة ووفرة نغمية .

والتزم المعري – من ناحية ثانية – أن يُرَتِّبَ قوافيها على ترتيب حروف المعجم جميعًا ، " ويعني بذلك أنه لم يترك واحدًا من حروف المعجم لم يجعله رَوِيًّا لبعض نصوص كتابه . وتلك ظاهرة مَهَّدَ لها المعري بما يوحي بأنه يعتز بانفراده بها دون سائر الشعراء ، مهما كان إنتاجهم غزيرًا " (17) ، وهذا أمر سَبَقَ إليه المعري إذ لم يفعله قبله شاعر أبدًا ، وبذلك كان له فضل الريادة ، ولم يكتف بهذا وإنما التزم مع كل حرف أن ينظم على حركاته الثلاث : الضمة والفتحة والكسرة ثم يأتي بعد ذلك السكون ، فجعل المعري القصائد والمقطوعات ذات الروي المرفوع تأتي قبل مثيلاتها ذات الروي المنصوب ، ثم تأتي مَثِيلاتُهَا ذات الروي المكسور بعدها ، وفي الأخير تأتي مَثِيلاتُهَا المقيدة أو ذات الروي الساكن ، " وتأليف هذه اللزوميات – من ناحية الشكل فقط – خاضع لخطة مرسومة ذات أبواب وفصول ولكنها أبواب وفصول شكلية تقوم على حروف الهجاء ، فكل حرف باب من أبواب القافية ، فصوله حركات تلحق هذا الحرف رفعًا ونصبًا وجرًا ثم سكونًا " (18) ، يلتزم هذا الترتيب لا يخرج عليه إلا نادرًا . ويرجع " اضطلاع أبي العلاء المعري بالنظم على حروف المعجم كلها والتزام ما لا يلزم إلى تبحر نظري ، وغلو في الصنعة ، لم يحفل بهما الشعر العربي في مراحله الأولى " (19) ، ولقد تَفَرَّدَ بذلك المعري وسبق إليه ولا نعلم أن أحدًا من الشعراء الذين عاصروه أو جاؤوا بعده ساروا على منواله .

والتزم – من ناحية ثالثة – قبل حرف الرَّوِيِّ حرفًا آخر أو أكثر من الحروف الهجائية ، فبعد أن كان الشعر العربي مقيدًا بقيدين هما الوزن والقافية ، أضاف إليه المعري قيدًا ثالثًا وهو هذا الحرف الملتزم في القصيدة قبل حرف الروي ، ولقد سبقه إليه شعراء عدة ولكن في أبيات قليلة ، وقد ذكر المعري ذلك في مقدمته وذكر أسماءهم وبعضا من أبياتهم مثل : الأعشى وطرفة بن العبد والنابغة وعمرو بن معد يكرب وكثير عزة والبحتري وابن الرومي وغيرهم .

وصف المعري التزام هؤلاء الشعراء بأنه دليل قوة ، ولو تركوه لم يَدْخُلْ أشعارهم ضعف ، لذلك سلك مسلكهم وزاد عليهم ليتحداهم وليبرهن أنه أقوى منهم ، ولقد تَمَيَّزَ المعري عليهم في جانبين :

الأول : في عدد الحروف الملتزمة إلى جانب الروي .

الثاني : التزامهم حرفًا واحدًا مع تاء التأنيث أو كاف الإضمار وهما ضعيفتان ؛ لأنهما من حروف الهمس ، أو مع الهاء وهي شبيهة بحروف اللين لخفائها ، فأرادوا تقوية هذه الحروف بحرف آخر التزموه معها ، أما المعري فقد كان التزامه مع حروف قوية مثل : الباء والميم واللام وغيرها مما لا تحتاج إلى تقوية .

إن تقسيم المعري للزومياته تبعًا لحروف المعجم ولكل حركة من ضم وفتح وكسر ثم السكون ، يجعلنا أمام مهندس معمار مدقق واع قد رسم مُخَطَّطًا دقيقًا للزومياته .

ذكر المعري في نهاية مقدمته عدد فصول ديوانه وهو ثلاثة عشر ومئة فصلٍ ؛ لأن لكل حرف أربعة فصول ، فصل لكل حركة من الحركات الثلاث : الضم والفتح والكسر ثم يأتي السكون ، إلا الألف وحدها فلها فصل واحد ؛ لأنها لا تكون إلا ساكنة .

–التجديد في بناء القصيدة :

أراد أبو العلاء المعري أن يُقَدِّمَ في هذا الديوان شيئًا جديدًا ، وأن يعرض فيه محاولة جديدة لتشكيل القصيدة العربية تشكيلًا هندسيًّا يقوم على مقاييس ثابتة ، ويعتمد على تخطيطٍ عَقْلِيٍّ مُنَظَّم لم يعرفه الشعراء من قبل ، " وبحق يمثل هذا الديوان كل هذه الجوانب التي كان أبو العلاء يحتل منها قمة الأستاذية الشامخة أروع تمثيل ، وهي قمة لم يصل إليها شاعر غيره من قبله ولا من بعده ، وإنما ظَلَّ مُنْفَرِدًا بها حتى اليوم " (20) ، وكأنه يريد أن يقول : إن الشعر عَمَلٌ صِنَاعِيٌّ يعتمد على الفكر والعقل .

بَنَى أبو العلاء المعري قصائده في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بِنَاءً عَقْلِيًّا ، فقد اعتمد الثقافات العقلية في بناء شعره ، واتخذ منها قاعدة يقوم عليها ومادة أساسية في تشكيلاته ، واستطاع أن يُذِيبَ هذه المادة العقلية في أعماق نسيجه الفني ، فالثقافات العقلية جعلها مُقَوِّمًا أساسيًّا من مقوماته ، وقاعدة أساسية قام عليها بناؤه الفني ، وعلى امتداد (اللزوميات) يُطِلُّ علينا حشد من الثقافات التي استوعبها عقل أبي العلاء المعري ، وكأنه حريص على أن يجعل من شعره مَعْرِضًا لها يعلن عن علمه الواسع ، ومعارفه المتعددة ، وقدرته على استغلالها في بنائه الفني واصطناعه لمصطلحاتها وأساليبها ، يقول المعري :

يَدُلُّ على فضل المـمـات وكَوْنِـهِ إراحةَ جسمٍ أَنَّ مَسْلَكَهُ صعبُ (21)

حيث افتتح لزوميته بعرض الأمر على أنه قضية فلسفية يُقِيمُ عليها الحجج والبراهين ، ويَصْطَنِعُ في ذلك ألفاظ الفلاسفة والمتكلمين ، فالعقل الفلسفي أنتج لصاحبه بعد التفكير والرؤية أن الحياة عناء للأجسام ، لأنها تحملها من أثقال وأعباء ما لا تحتمله إن فقدت الحياة ، إذن فالموت مريح للأجسام ؛ لأنه يلغي ما كان بينها من التضامن . ويقول المعري :

لأمـواه الـشَّبيبة كـيف غِـضْـنَـهْ وروضـات الصِّبَا كاليَبس إِضْنَهْ (22)

نَعَى المعري الشباب وتقطع أسباب الشباب والقوة ، التي يأمر فيها بالإذعان والاستسلام مادامت الآمال لا تواتي وأسباب الأماني لا تتصل ، فينهى عن طائفة من الآثام ، ويأمر بطائفة من المحسنات ، حتى إذا فرغ من النهي والأمر لجأ إلى الشك الذي ينتهي بصاحبه إلى اليأس والقنوط ، فبدأ بالحزن والحسرات وانتهى باليأس والقنوط ، فإذا فرغ المعري من هذه الفلسفة السلبية أقبل على فلسفة إيجابية يُتِمُّ بها ما ينبغي للرجل العاقل وهو أن يأخذ فلسفته الإيجابية من الدين .

ربط أبو العلاء المعري أفكاره ومعانيه وعواطفه بقوافيه ، وطَوَّعَ القافية لأدائها ، وجعلها بُنْيَةً حسية متصلة بكل جزء من أجزاء القصيدة ، يقول المعري :

مـا لـي غدوتُ كقافِ رُؤْبة قُيِّدَتْ ... في الـدهر لـم يُقْدَرْ لها إجراؤها
أُعْلِلْتُ عـلـة قـــال وهي قـديمةٌ ... أعـيا الأَطِبَّةَ كُـلَّـهـم إبـراؤهـا (23)

أشار في البيت الأول إلى أرجوزة رؤبة وقافيته المقيدة التي ألزم رويها السكون ، وهو يشير إلى حياته التي طالت عليه وألزمت سجونه الثلاثة ، وأشار في بيته الثاني إلى اعتلال (قال) وما يشبهها من الأفعال التي تنقلب وواتها وياءاتها ، يريد حياته قد طالت عليه وألزمت سجونه وما فيها من عِلَلٍ وآلام .

واتجاه المعري للزوم ما لا يلزم يُقَصِّرُ نَفَسَهُ ؛ لأنه صنعة تحد فكرته ولا تتيح له طول النفس ، فكانت أكثر (اللزوميات) مقطوعات صغيرة تتراوح بين البيتين والستة وطائفة منه يرتفع بعضها إلى حوالي مئة بيت . ولعل أبا العلاء المعري كان يحس أن المقطوعات أقرب إلى تسجيل آرائه وأفكاره بدلا من تعدد الآراء والأفكار في القصائد الطويلة ، وكأنه بهذا يحاول أن يحقق لهذا الديوان الجديد وحدة موضوعية هي – بلا شك – شيء جديد في الشعر العربي .

–التجديد في المادة اللغوية :

أبو العلاء المعري ممن كانت له مقدرة لغوية كبيرة ، استطاع أن يُحِيطَ إحاطة واسعة بمفردات اللغة ، " إن المعري مشغول بسعة معارفه ولعل من أبرزها إحاطته بالعربية إحاطة لا تجدها حتى لدى الذين اشتهروا بالعلم اللغوي من اللغويين والنحاة " (24) ، فأخذ نفسه بالعربية وعمد إلى التسلي بها شعرًا ، واهتم المعري باللغة وقواعدها وصرفها ونحوها وسائر ما يتصل بها من معانٍ ودلالات واصطلاحات ، وهو في هذا يعتمد ما توافر له من معين لا ينضب من معرفة لغوية واسعة ، وهذه المعرفة تتجاوز استيعابه للمعجم القديم إلى معرفة وافية بأصول العربية وأَبْنِيَتِهَا ، فاللغة عنده ليست أداة تعبير فحسب يعبر بها ويَتَلَذَّذُ بها ، وإنما لغة " تُعَبِّرُ عن آرائه من خلال تعبيرها عن نفسها . وهو قد تجاوز التعبير باللغة إلى التعبير في اللغة وعن اللغة أي أنه لم يقف عند حدودها بل تجاوزها إلى ما وراءها " (25) ، فاللغة كائن تداخل معه حتى أصبح يعبر من خلاله لا به ، يقول المعري :

طَلَبْتُ مكارما فأجـدتُ لـفـظـا ... كَـأَنَّـا خـــالـدانِ عـلى الـزمانِ (26)

عكف أبو العلاء المعري على استنباط ذاته وفجر مواهبه وعبقريته بما خلف من روائع الشعر ، فالمعري يَسْتَنْطِقُ اللغة ويُوَلِّدُهَا حتى تتكشف قدراتها وتَتَجَلَّى قدرة الإبداع فيها بَيِّنَةً جَلِيَّةً .

لقد وعى أبو العلاء المعري اللغة العربية حفظًا واستيعابًا وتعمقًا ، " على أن لغة المعري كانت ظِلًّا لعالمه الفسيح ، عالم التفكير المبدع والنفس الرفيعة الخيِّرة " (27) ، يشهد له بذلك ثروة لغوية ضاقت بطون المعجمات عن الإحاطة بها وخبرة طويلة بالعربية بعد أن انقطع جُلَّ عمله يألف وحشيها ويأنس بآبدها .

ولم يكتف أبو العلاء المعري بألفاظ اللغة العربية فذهب وراء اللفظ الأعجمي والكلمة الفارسية يأخذها ويَشْتَقُّ منها ، فاستخدم المعري ألفاظًا دخيلة غير عربية ، ومن ذلك قوله :

لا يُبْصُرُ القوم في مـغناك غِسْلَ يَدٍ ... على الطـعام إلى أن يُرْفَعَ السُّورُ (28)

فـ(السور) دعوة الوليمة , وهي كلمة فارسية . وقوله :

إنَّ الـطبيبَ وذا الـتـنجيمِ مافَـتِئَا ... مـشـهَّـرَيْنِ بـتـقـويم وكُـنَّـاشِ (29)

و(الكناش) لفظة سريانية معناها الدفتر تدرج فيها القواعد والشوارد .

وورود ألفاظٍ غير عربية في الشعر العربي – وبخاصة في العصر العباسي – كان شيئًا مألوفًا عند الشعراء ، فقد اتسعت الثقافة بالاطلاع على مختلف تيارات الفكر ، بحيث أصبح استخدام تلك الألفاظ نوعًا من التقاليد الفنية .

شَهِدَ العصر العباسي ازدهارًا في مختلف مظاهر الحياة , كما نشطت الحركة العلمية في مختلف فروع المعرفة ، وتَسَرَّبَتْ بعض مصطلحات العلوم إلى لغة الأدب ، ولهذا لا تخلو منها أشعار أبي تمام والمتنبي والمعري وغيرهم ، ولكن أبا العلاء المعري من أكثر هؤلاء الشعراء استخدامًا لتلك المصطلحات في شعره ، فقد تَعَرَّضَ لموضوعات شتى من نحو وصرف وحساب وهندسة وكيمياء وفيزياء وفلك وجغرافيا وتاريخ وطب ، واستطاع بحذقه أن يُرَوِّضَ الشعر حتى أخضعه لقبول الحكمة والعلم ، واستخدم من مسائله ومصطلحاته روائع الوصف العلمي والملحوظات الفاحصة والمصطلح العلمي . يقول المعري في النحو :

تَـزَوَّجْ إن أردتَ فـتاة صِـــدْقٍ كَمُضْمَرِ نِعْمَ دام على الـضـمير (30)

ويقول في الهندسة :

ظَلُّوا كـدائـرة تـحـوَّلَ بعـضـهـا من بَعْضِهَا فجميعها مـعـكـوسُ (31)

ويقول في المنطق :

جَرَتِ القضايا في الأنـام وأُمْضِيَتْ صُـدُقـا بأســـوارٍ ولا أسـوارِ (32)

برز من الدارسين الْمُحْدَثِينَ من يُعدُّ وجود المصطلحات العلمية مَظْهَرًا من مظاهر التعقيد الفني ، ووسيلة يلجأ إليها المعري ليثبت معرفته بمثل تلك المعارف ومصطلحاتها ، وفي نظرهم غلا غلوًا شديدًا إذ ألح في طلبها إلحاحًا شديدًا ، فانطلق يتكلف في شعره هذا الكلف التي لا تُفْصِحُ عن جمال فني ، ومن هؤلاء الدارسين الدكتور شوقي ضيف الذي ذكر أن هذا الإسراف في التعرض لمسائل العلوم والمعارف جعل من يقرأ اللزوميات يَحُسُّ " بأنه يقرأ في كتاب ثقافة لا في ديوان شعر " (33) .

وقد سبق الْمُحْدَثِينَ ابن سنان الخفاجي إلى هذه النظرة وانتقد أبا تمام والمتنبي والمعري لاستخدامهم ألفاظ المتكلمين والنحويين ومصطلحات أصحاب المهن والعلوم في شعرهم ، وفي مجال انتقاده هذا يقول : " ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم وفي الكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم ، لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة " (34) .

وتَصَدَّى ابن الأثير للقائلين باستبعاد ألفاظ العلوم من لغة الأدب ، ويَرُدُّ عليهم بقوله : " صناعة المنظوم والمنثور مستمدة من كل علم وكل صناعة ، لأنها موضوعة على الخوض في كل معنى ، وهذا لا ضابط له يضبطه ولا حاصر يحصره ، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنثور في صوغ معنى من المعاني وأَدَّاهُ ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي أو غير ذلك فليس له أن يتركه ويحيد عنه ، لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذي قصده " (35) .

وَكَثْرَةُ المصطلحات العلمية في ديوان (لزوم ما لا يلزم) لها ارتباط كبير بعصر الشاعر ، وهو عصر شهد – كما قلنا – نهضة علمية وثقافية واسعة " فالروافد العلمية التي أسهمت في تغذية التيار الثقافي عند أبي العلاء هي بعينها الروافد التي جعلت من عصر أبي العلاء – بشهادة الدارسين والباحثين – من أرقى العصور في تاريخ الفكر والحضارة الإسلامية " (36) ، وكان المعري شأنه شأن شعراء عصره مفتونًا بالثقافات على اختلاف موضوعاتها ، وعلى هذا لا يعيب الشاعر أن يُدْخِلَ في لغته الشعرية المصطلحات العلمية على أن يُخْرِجَ تلك الكلمات من دائرة العلم إلى الخَلْقِ الفني ، فالمصطلحات العلمية ألفاظ كغيرها من ألفاظ اللغة ومن حَقِّ الأديب أن يستعمل منها ما يحتاج إليه ليُحَدِّد الفكرة التي يريد التعبير عنها ، والمعاني الجديدة قد تحتاج إلى لغة جديدة لأدائها أو لتطويع اللغة المستخدمة ، ولا يخفى أن كثيرًا من معاني المعري جاءت جديدة .

وجد أبو العلاء المعري في التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي قديمه والمعاصر له مادة غزيرة غذت فنه الأدبي ، وانتفع بها إلى أبعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل منظومه ، وقد أكسبت شعره حيوية وأعانته على صوغ آرائه في الإصلاح السياسي والاجتماعي ، وكذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به ، يقول المعري :

سلكَ النَّجْدَ في قِطَار المنايا قَطَرِيٌّ [37] ونجدةٌ [38] وشبيبُ [39]
شَبَّ فِكْرُ الحصيف نارًا فما يحـ ـسن يوما بعاقل تشبيبُ
أين بقراطُ [40] والمقلِّدُ جاليـ ـنوسَ [41] هيهاتَ أن يعيشَ طبيبُ [42]

فأشار في مقطوعته هذه إلى أعلام كان لهم حضور تاريخي ، واختيار المعري هؤلاء الأعلام من بين مئات الأعلام من حيث أنهم توسعوا في الكلام عن صفات عرفوا بها في حياتهم .

و" لقد كان التاريخ من المصادر الثرية التي استقى منها المعري مادة ديوانه , فقد زخر ديوان اللزوميات بهذه الإثارات وقَلَّمَا يَمُرُّ القارئ بقصيدة لا يجد فيها إشارة إلى أحداث أو شخصيات تاريخية بعينها " [43] ، وهذا المظهر الذي خرجت فيه القصائد عند المعري يُبَيِّنُ إلى أي حَدٍّ استغل موضوع التاريخ فإذا به يراه مصدرًا لثلاثة مواقف : المعرفة والاعتبار والعمل ، فأخرج التاريخ من طبيعته المتجمدة التقريرية إلى صورةٍ حَيَّةٍ مُثْمِرَةٍ .

إن صياغة المعري تستمد أصولها من ثقافة فلسفية ، فهو يُعَدُّ رائد الفلسفة في الشعر العربي ، فقد جمع إلى موقفه من المجتمع الذي عاش فيه نظرة شاملة إلى الكون ، فَتَخَلَّى عن غنائية الشعور إلى غنائية الفكر ، وكأن المعري في اللزوميات أراد أن ينقل الشعر من غنائيته إلى فوائد معرفية يُسْتَعَانُ فيها بالكلمة الجميلة تعريضًا وتصريحًا وتقريرًا وإيحاءً .

يُعَدُّ أبو العلاء المعري رائد مدرسة الألغاز والأحاجي ، وهي " مدرسة فريدة في بابها ، جديدة في مناهجها ، اتضحت معالمها في القرن الخامس الهجري...أَسَّسَهَا أبو العلاء المعري ، وأَعْلَى بناءها الحريري " [44] ، وقد نَجِدُ في ديوان اللزوميات رَأْيًا في شعر غيره ، ويتخذ من الأدباء رموزا في أدبه ، ومن ذلك قوله :

وجدتُ عواريّ الحياةِ كثيرةً كَأَنَّ بقاءَ المرءِ شِعْرُ حبيبِ [45]

فالمعري يرى أن الإنسان يُعَانِي من مصائب الدنيا وكأنَّها شعر أبي تمام الذي كان يَشُوبُهُ الغموض والتعقيد .

استخدم أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) كثيرًا من الألوان البديعية ، ولكن أهم لونين انتشر فيها بصورة واسعة الجناس والطباق ، فقد استخدمها في إفراط واضح ومبالغة شديدة ، حتى لا تكاد تخلو لزومية من لزومياته منها ، فأكثر المعري من الأصباغ البديعية ، ومَزَجَ المطبوع بالمصنوع ، فنراه يتعمد البديع تعمدا ويتكلف ألوانه تكلفا ، وكأنه يضيف إلى لوازمه المتعددة لازمة جديدة .

أكثر أبو العلاء المعري من استخدام الجناس بجميع درجاته , وقد " اختار في استعمال الجناس أسلوبًا يوشك أن يكون مقصورًا عليه : ذلك أن يعقد المجانسة بين أول كلمة في البيت وبين آخر كلمة منه " [46] ، ومن ذلك قوله :

أتراكَ يوما قائلا عن نِيَّةٍ خَلَصَتْ لنفسك يالجوج تَرَاكِ
أدراكَ دهركَ عن تُقَاكَ بجهده فَدَرَاكِ من قبل الفواتِ دَرَاكِ [47]

حيث استطاع أن يُؤَلِّفَ جناسًا بين أول كلمة في البيت والقافية ، وكذلك جانس بين آخر الشطر الأول و بين القافية ، ومن ذلك قوله :

كم تَنْصَحُ الدنيا ولا نَقْبَلُ وفائزٌ مَنْ جدّه مُقْبِلُ [48]

فالجناس الماثل في (نقبل–مقبل) حَقَّقَ تماثلا على المستوى الصوتي ، إلا أن ارتباط تقبل بـ (لا) النافية للجنس أَدَّى إلى التضاد الدلالي ، ولَعَلَّ الشاعر يقصد هذه المماثلة الصوتية والتضاد الدلالي كي يعبر عن تلك الثنائية الجدلية ، فدور الجناس " قلما يكون شكليًّا ، لا صلة له بالمدلولات ، وأنه في أغلب الأحيان جاء منبها على ذات المدلول " (49) .

فَثَمَّةَ علاقة قوية بين الصوت والدلالة ، فقد قال الجرجاني : " وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولا ، ولا سجعًا حسنًا ، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه " (50) ، وعليه عندما نفكر في القيمة الصوتية فإننا لا نفكر فيها منفصلة عن المعنى بل نفكر في المعنى من خلال مستويات متعددة تتجاوب تجاوبًا لا يسمح بالتفكير فيها منفصلة عن غيرها .

وهذا هو التصور الأسلوبي للصوت والبحث عن طاقاته ودلالاته ، فكلما قمنا بتحليل قطاع من التعبير ، وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة جمالية ، فاللغة نفسها في جميع مظاهرها إنما هي تعبير خالص ، ومن ثم فهي علم جمالي ، وهي أصوات منظمة مهيأة من أجل التعبير.

والطباق منتشر في ديوان (لزوم ما لا يلزم) حتى لا تكاد تخلو لزومية من لزومياته منها ، فأحيانًا يكون غير متزاحم ، ومن ذلك قوله :

ألا إنَّما الـدنيا نُحُوسٌ لأهـلـهـا فما في زمانٍ أنت فيه سُعُودُ (51)

وأحيانًا يكون الطباق متزاحمًا يُغَطِّي البيت ، ومن ذلك قوله :

تَخَالَفَتِ الأغراض نـاسٍ وذاكرٌ وسـالٍ ومُشْتَاقٌ وبانٍ وهادمُ (52)

فالإكثار منه في السياق الواحد يُقَوِّي تصوير الحركة والتوتر فيه ، ويزيد جوانبها تدقيقًا .

وكَأَنَّ البديع في اللزوميات كان رَمْزًا يَحْمِلُ دلالات لرفض الواقع وإنكاره ، فالطباق يرمز إلى ما نشاهده في الحياة من تناقض ، والجناس لما نجده من تشابه المظهر واختلاف الجوهر .

–التجديد في الأسلوب والصورة الشعرية :

استخدم أبو العلاء المعري طاقات اللغة في الدلالة والتركيب والحقيقة والمجاز وغيرها من وسائل التعبير الفني ليعبر عن جوانب تجربته الشعرية ، وكان للصورة في ديوان (لزوم ما لا يلزم) دورها الواضح في تصوير موقفه من الحياة تجاه الكثير من القضايا الفكرية والاجتماعية في إطار رؤية جمالية خاصة ، يقول المعري :

لـقـد جاءنا هذا الشِّتَاءُ وتحتَهُ فقيرٌ مُعَرًّى أو أميرٌ مُدَوَّجُ (53)

فما أروع تلك الصورة الشعرية إذ ترى فصل الشتاء زاحفًا بزمهريره ، وترى فقيرًا بائسًا يستقبل هذا الفصل عاريًا لا يجد ما يدفئه أو يقيه ، ثم ترى إلى جانبه أميرًا ثريًّا متدثرًا بِلِحَافٍ لا يكاد يشعر بألم البرد القاسي .

وللصورة الشعرية مصادرها ، وكانت أكثر تلك المصادر وضوحًا في ديوانه اللزوميات الثقافة بجوانبها التاريخية والعلمية . أَمَّا الثقافة التاريخية فهي من أكثر المصادر التي استعان بها أبو العلاء المعري في تكوين صوره الشعرية ، فقد حَفِلَ شعره بالإشارات التاريخية ، ومن ذلك قوله :

ومحـمـد هـو الْمُنَبَّأُ يـشـتـكـي لمكانِ أَكْلَتِهِ انقـطـاعَ الأَبْهَرِ (54)

ففيه إشارة إلى الأكل المسموم الذي أكله النبي – صلى الله عليه وسلم – فقطعت أبهره . ويقول المعري :

تـلك عـجـوزٌ أَلَّـفَـتْ شـرَّهـا قـبـل بـنـي فِـهْـرٍ وإيـلافِـهـا (55)

حيث جعل الدنيا عجوزا شَبَّتْ على الشر وشابت عليه قبل إيلاف قريش رحلتي الشتاء والصيف . وهذه الإشارات التاريخية تُؤَكِّدُ معرفته الواسعة وتُظْهِرُ ثقافته المتنوعة .

أَمَّا الثقافة العلمية فلم يكن حَظُّهَا قليلا في تشكيل صور المعري , فقد استخدم الثقافات المختلفة واعتمد عليها في صوره ، ومن ذلك قوله :

وَأَعْمَارُنَا أبياتُ شعرٍ كأنما أَوَاخِرُهَا للمنشدينَ قوافي (56)

حيث استخدم المعري علم العروض , وجعل من القافية مادة شَبَّهَ بها أعمار الناس .

واستخدم علم الفقه في تشكيل صوره ، يقول المعري :

ووجدتُ دنيانا تُشَابِهُ طامثًا لا تستقيمُ لناكحٍ أَقْرَاؤُها (57)

فارتفع في شعر المعري أصداء الثقافات المختلفة ، واعتمد عليها في رَسْمِ صوره ، وقد أشار الدكتور طه حسين إلى استخدام المعري لاصطلاحات العلوم من نحو وصرف وعروض وفقه بوصفها مادة للصور الشعرية فيقول : " والعَجَبُ أن تلقى في هذه الاصطلاحات المستعارة ، تشبيهات صحيحة جيدة ، مع أنها في أنفسها أبعد ما تكون من ظرف الشعراء" (58) .

فلم يتوقف المعري في ثقافته عند حدود ضَيِّقَةٍ ، وإنما وَسَّعَ آفاقه وضرب في كل ناحية بسهم وأخذ من كل فن بنصيب ، وبذلك صارت المسائل العلمية في متناوله يستمد منها ما يشاء ويجعلها مصدرًا من مصادره .

ووَضَحَتْ النزعة الفكرية في ديوان (لزوم ما لا يلزم) فميله لاستخدام أسلوب الحكمة والإرشاد العقلي يمثل جزءا بارزًا من تجارب المعري التأملية ، يقول المعري :

لأمواهُ الشَّبيبة كيف غِضْنَهْ وروضات الصِّبَا كاليَبْسِ إِضْنَهْ (59)

فقد صَوَّرَ المعري بؤسه ويأسه تصويرا هادئًا ولكنه مؤثر ، وذهب المعري بتصويره إلى حسرات لا تنقضي وإلى تعجب حزين لا ينتهي . ويقول المعري :

وخَالَفَ ناسٌ في السَّجَايَا ليُشهروا كما جُعِلَ التصريعُ ختمَ القصائدِ (60)

وقد التمس المعري من التصريع تشبيهًا طريفًا عندما شَبَّهَ سلوك مجموعة من الناس همها مخالفة المألوف والخروج على قوانين الأشياء وطبائعها بصنيع بعض الشعراء الذين يجعلون التصريع في ختم القصائد وليس في ابتدائها ، فالهدف في الحالتين واحد وهو طلب الشهرة ونَيْلُهَا بمخالفة الأعراف .

–التجديد في الموسيقى الشعرية :

اِلْتَزَمَ أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) ترتيب قصائده ومقطوعاته على حسب البحور العروضية كما رَتَّبَهَا الخليل لا من حيث أوزانها الأصلية ، ولكن من حيث تشكيلاتها الموسيقية المختلفة ، فبدأ بالبحر الطويل ثم انتقل إلى البسيط ثم الوافر ثم الكامل ثم سائر البحور بحسب ترتيبها العروضي المعروف ، ولكي يتجنب المعري الملل والسآمة كان لا يأتي بوزن من الأوزان على هَيْأَةٍ واحدة بل غالبًا ما يستقصي أضربه ، وقد

حَقَّقَ له ذلك وفرة في الموسيقى وتوزيعًا في الألحان ، وفي ذلك من التنوع في النغمات ما لا يخفى ، فاختلف بذلك عن الشعراء السابقين ، وفي هذا ما يُفَرِّقُ بين ديوانه اللزوميات وغيرها من دواوين الشعراء السابقين .

وتتراوح القافية في اللزوميات " بين ثلاثة أصوات وثمانية أصوات ، أي أن عدد الأصوات التي تتكرر في أواخر الأبيات يبدأ بثلاثة ثم يتدرج هذا العدد حسب ما في القافية من كمال موسيقي حتى يصل إلى ثمانية " (61) ، فَسَمَا المعري بموسيقى القافية ، يقول المعري :

راعتكَ دنياك من رِيعَ الفؤادُ وما راعتك في العيش من حسن الْمُراعاة
كأنما اليومُ عبدٌ طالبٌ أمةً مـن ليلةٍ قد أَجَدَّا في المساعاة (62)

حيث راعى المعري هنا أَلِفَيْ مد هما بمثابة حرفين ، وحركتين قصيرتين ، ثم راعى حرفًا آخر هو العين ، بالإضافة إلى حرف الروي وحركته .

ونظرا لما للقافية من أهمية في بناء القصيدة في الشعر العربي ، وبالتالي للكلمة الحاملة لتلك القافية التي تمثل مقطع البيت ، يقول المعري :

سحائبُ مبرقاتٌ مرعداتُ لمهجَةِ كل حَيٍّ مُوعداتُ (63)

فمن الملاحظ أنه لم يخل بيت في هذه القصيدة من بعض حروف المقطع وهي حروف قد تقل وقد تكثر قبل أن تأتي مجتمعة في كلمة المقطع ، ومن شأن هذه الظاهرة أن تمكننا من استنتاج أن المعري شديد الحرص على أن يُمَهِّدَ لقافيته بذكر أكبر عدد ممكن من مكونات اللفظة قبل بلوغها . وما يمكن استنتاجه من ظاهرة الحرص على ترديد أصوات المقطع في البيت قبله أن لفظة المقطع تسعى إلى السيطرة إيقاعيًّا بِتَفَشِّي جرس مكوناتها في فضاء البيت .

وعند التقاء التماثل الوزني مع التماثل الصوتي تجتمع الألفاظ فيما يمكن أن يُعدَّ ضربًا من التوازن التجنيسي الذي ينتج إيقاعًا يقوم على أساسين : أحدهما إطاري ولده الوزن ، وثانيهما داخلي ينتج عن تماثل الأصوات ، لكنه لا يصل إلى مستوى الجناس التام ، يقول المعري :

فُقِدَتْ في أيامك العلماءُ وادلهمَّتْ عليهمُ الظلماءُ (64)

لزم المعري في هذه القصيدة الميم مع الهمزة المضمومة ، وصاغه على البحر الخفيف ، وبالنظر إلى مكونات النص من الحروف تَبَيَّنَ أنه لم يخل بيت من حرف الميم ، والعدد الأقصى للميمات في البيت الواحد هو ستة كما في البيت الأول . ومن شأن انتشار صوت الميم في كامل أنحاء النص موزعًا على كل الأبيات في كامل أجزائها أن يجعل جرسه بِغُنَّتِهِ المميزة يطغى على كامل إيقاع النص ويملأ أذني المتلقي .

وقد أدرك المعري ما يَتَطَلَّبُهُ الشعر من تنغيم فوفر كل ما يُعِينُ على تجويد الرنين في شعره ، وعمد إلى الوسائل الفنية التي تحقق هذا الغرض ، ومن بينها التصريع ، وقد جاء في مطالع القصائد ، كقوله :

لأمواهُ الشَّبيبة كيف غِضْنَهْ وروضات الصِّبَا كاليَبْسِ إِضْنَهْ (65)

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى ما أَضْفَاهُ التصريع في هذا البيت من نغم فيقول : " فانظر إلى هذا التصريع بين ((غضنه)) و ((إضنه)) ، كيف يرتفع بالبيت ، أو قل يثب به إلى هذه الجزالة الشائعة في شطريه " (66) ، ولَعَلَّ تلك الجزالة التي يشير إليها هي الطاقة الموسيقية الإضافية التي أَضْفَاهَا المعري على الصياغة حين وُفِّقَ في التزام ما لا يلزم في قوافيه ، وكأنه يشكل تشكيلاً هندسيًّا متناسقًا .

ويمكن أن نعد الجناس صيغة صوتية وإيقاعية ودلالية تتخذ من حاستي السمع والبصر مُسْتَوَيَيْنِ يؤديان إلى التقارب الدلالي ، إذ تَبْرُز حاسة السمع من خلال تتبع إيقاع الأحرف عند التصاقها ، وتَبْرُز حاسة البصر من خلال تتبع رسم الحروف وما يتفق منها وما يختلف ، وبذلك فإن بُنْيَةَ التجانس ليست ذات قيمة إيقاعية فحسب وإنما بنية تعمل على المستوى الدلالي وتدفعه إلى النضج والاكتمال .

ولزوم ما لا يلزم ضغط اختياري إضافي يَمَسُّ كل جوانب البناء اللغوي ، وبالنجاح فيه يتحول ما كان يبدو عنتًا وتكلفًا إلى لبنة جديدة تُضَافُ إلى لبنات الإبداع الشعري في النص تدعم خاصة جانب الإيقاع فيزداد بها نُضْجًا وصلابةً ، إذ يمكننا أن نستنتج أن ظاهرة لزوم ما لا يلزم هي عملية دعم جَلِيَّةً لإيقاع النص .

– التجديد في المضامين الشعرية :

اتسعت طاقة الشعر في العصر العباسي اتساعًا مشهودًا ، وقد تَجَلَّى ذلك في التطورات التي ظهرت في موضوعات الشعر العباسي ، فقد تَخَلَّلَ بعض الشعراء من الجمود عند الموضوعات القديمة ، وأخذوا يُجَدِّدُون ويُطَوِّرُونَ وفق العوامل البيئية المختلفة التي ظهرت تأثيراتها المباشرة على الشعر والشعراء . وهناك في ديوان (لزوم ما لا يلزم) قصائد ومقطوعات تعبر عن تجارب فكرية وشعورية عميقة ، مما يُشْعِرُ القارئ بالصدق الفني من خلال وضوح تجربته ورؤيته للحياة في عصره من مختلف جوانبها الفكرية والاجتماعية ، فالمعري ذو أصالة فردية تتضح شخصيته في شعره ، وليس من الغارقين في القوالب التقليدية ، فيُحَقِّقُ في شعره رؤيته وموقفه الفكري وبناءه الفني الخاص .

وانفرد ديوان (لزوم ما لا يلزم) بخلوه من أبواب الشعر المطروق : المدح ،والرثاء ، والوصف ، والغزل ، والفخر ، وانصرف ناظمه إلى تمجيد الله – عز وجل – ونقد الحياة وبحث مشكلات الحياة والموت ، وقد صَرَّحَ بذلك في مقدمة هذا الديوان إذ يقول : " فمنها ما هو تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ، ووضع المنن في كل جيد ، وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا " (67) ، فما تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة في ديوانه دون أن يُمَجِّدَ الله فيها تصريحًا أو تلميحًا ، فلم يُعْنَ بالأغراض الشعرية المتداولة ، واتخذ لنفسه مسارًا آخر غَرَّدَ به خارج سربه ، أَوْدَعَه أفكاره وآراءه في الموت والحياة والأديان والنسك والعبادة والزهد والفلسفة والعقل والنقد والأخلاق . ويبدو أن المعري نهج منهجا في الأغراض اختطه لنفسه وابتدعه ابتداعًا خالف فيه من قبله ولم يلحقه فيه من بعده .

قام المعري بِعَرْضِ الأغراض والموضوعات بصورة أدق وأعمق ، وأخذ يُنَمِّي بعض جوانب الشعر لتخرج منه فروع جديدة ، وبرزت موضوعات جديدة لم تكن شائعة في الشعر العربي القديم ، ومن أبرز تلك الموضوعات والأغراض :

–الشعر الفلسفي :

يرى بعض الدارسين أن ديوان (لزوم ما لا يلزم) فَنٌّ جديد في الشعر العربي ، ورائد هذا الاتجاه الدكتور طه حسين حيث يقول : " وليس من شعراء العرب كافة ، من يشارك أبا العلاء في خصال امتاز بها : منها أنه أحدث فَنًّا في الشعر ، لم يعرفه الناس من قبل وهو الشعر الفلسفي الذي وضع فيه كتاب اللزوميات ، وربما خُيِّلَ إلى الناس أن الشعر الفلسفي قديم عند العرب ، نظم فيه زهير ، وعدي بن زيد ، وأبو العتاهية ، وأبو الطيب ، لأنهم طرقوا فنون الحكمة والزهد ، وأنواع العبرة والعظة ، ولكن هذا النوع من الشعر غير الذي أنشأه أبو العلاء . إنما أنشأ أبو العلاء فَنًّا من الشعر استنزل الفلسفة من منزلتها العلمية المقصورة على الكتب والمدارس ، إلى حيث تسلك طريق الشعر إلى قلوب الناس " (68) ، فالشعر الفلسفي قديم عند العرب نظم فيه بعض الشعراء السابقين ، وكانت أكثر آرائهم ونظرياتهم متصلة بالفلسفة الأخلاقية ، وليس نظريات خاصة يقيم عليها الأدلة .

أما أبو العلاء المعري فقد كانت فلسفته مستمدة من الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الهندية ، والفلسفة الفارسية ، وكتب الدين ، " وكان استوى له عقل فلسفي تمثل كل ما أنتجه الفكر الإنساني من فلسفات اليونان ومن فلسفات الشرق الهندية وغير الهندية ، وأخذ يُكَوِّنُ له فلسفة تجمع في أصولها بين تلك الفلسفات وفلسفة الفكر الإسلامي وخاصة عند المتكلمين . فلسفة هي مزيد من تلك المذاهب الكثيرة التي تمثلها تمثلاً رائعًا ، والتي التقت في فكره لتتحول إلى صورة فلسفية جديدة ، أو قل إلى صورة فلسفية علائية لها أصولها ومقوماتها وطوابعها المميزة " (69) ، فاستطاع أن يُخْضِعَ الفلسفة والعلم للشعر ، وأن يُثْبِتَ مدى طواعية الفن للتعبير عن أدق الأفكار الفلسفية وأعمقها ، فزاوج بين الشعر والفلسفة مزاوجة نادرة حفظت للشعر قيمته وللفلسفة شيوعها وسلطانها ، " وقد تَمَّ على يديه تحويل الشعر إلى بناء فلسفي تَحَوَّلَتْ قصائده معه إلى مجموعة من النصوص الفلسفية " (70) ، فقد يأتي بالنظرية ويقيم عليها الدليل ، يقول المعري :

يَدُلُّ على فضلِ الممات وكَوْنِهِ إراحـةَ جـسـمٍ أن مَـسْـلَـكَـهُ صعبُ
ألم تَـرَ أَنَّ المجدَ تلقاك دونهُ شدائدُ من أمثالها وَجَبَ الرّعبُ (71)

حيث إنَّ العقل الفلسفي أنتج له أن الحياة عناء للأجسام ، وانصرف بأسلوبه إلى مذهب الفلاسفة ، فعرض الأمر على أنه قضية فلسفية ، ثم يلقي الحجج والبراهين عليها ، فجعل الموت الذي يرغب فيه الحكيم صعب المرام كالمجد كلاهما لا ينال إلا بعد الجهد ولا يبلغ إلا بعد تكلف المشقات .

جعل أبو العلاء المعري العقل وحده أساسًا لآرائه الفلسفية ، فالعقل فوق كل شيء ، والعقل عنده أفضل ما منحه الإنسان ، فهو قادر على الوصول إلى الحقيقة ، " فلم يقبل إلا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له إمامًا غير العقل في صبحه ومسائه " (72) ، فالعقل للفرد كالنبي للأمة يهديه إلى سواء السبيل ويُرْشِدُهُ إلى الفضيلة ويَنْهَاهُ عن الرذيلة .

قَدَّمَ المعري الفكرة الفلسفية في قالب شعري ترتكز على العقل والحواس وتتشابك بالعواطف والمشاعر ، " فانتقل الشعر على يديه من الخيال إلى الحقيقة " (73) ، حيث أَعْمَلَ عقله وأحاسيسه في مواقفه وتجاربه ، فلا نجده يحيد عن الواقع ، ثم لا يكتفي بهذه المواقف العقلانية ، وإنما يُحاوِلُ الهداية والإرشاد إلى الصواب . ويبدو أن المناخ الفكري والقدرة اللغوية التي أتاحت له حرية الحركة الشعرية في صياغة ما في داخله من فكر فلسفي كانا وراء ظهور ما سمي بالشعر الفلسفي ، هذا اللون من الشعر الذي يعد بحق إضافة لها قيمتها في تيار التجديد العام للشعر .

– مناجاة الحيوان :

ذهب أبو العلاء المعري في ديوانه (لزوم ما لا يلزم) إلى مناجاة الحيوان ، " وقد إِبْتَدَعَ في شعره مناجاة الحيوان " (74) ، فحاور الديك والذئب والشاة وحذر الثعلب وانتقد الحمامة ، وكانت قصائده في تلك المناجاة أكثر رقة وأسهل تعبيرًا ، يقول المعري محاورًا الديك :

أيـا ديكُ عُـدَّتْ من أياديكَ صيحةٌ بعثت بهـا مَيْتَ الكرى وهـو نائمُ (75)

ظَلَّ شعاع أبي العلاء المعري وهَّاجًا مُتَمَيِّزًا بما أَدْخَلَهُ من أنماط التجديد والتلوين والتصرف ، واستطاع ببراعته الفنية وقدرته الإبداعية إعادة تشكيل شعره وإِضْفَاء شيء من الطرافة والتجديد عليه حسب صنعته الفنية ، وكانت حركات التطوير هذه بدافع الرغبة إلى الجديد وليست تَخَلُّصًا من عمود الشعر وصرامته وإلا ما ذهب المعري إلى الزيادة في القيود ، فأضاف إلى المواد والعناصر التي رسخت في ذهنه من شعر سابقيه عناصر جديدة أبدعها خَلْقًا آخر في كثير من الأحيان ، فتنوعت عناصر التجديد بتنوع ثقافته وإدراكه وتجاربه ، وكانت تتألف في ذهنه وخياله من كل ما وقع عليه عقله وفكره وما يرتبط من مشاعر ومواقف وجدانية بعيدة الغور ، واستطاع المعري بما ملك من إبداع أن يَمْزُجَ بينها في بِنَاءٍ فَنِّيٍّ مُتَّحِدِ الأجزاء مُنْسَجِمِ الأطراف وهذا هو عنوان أصالته وشخصيته المبدعة .

– المصادر والمراجع :

(1) المعري ، أحمد بن عبد الله : سقط الزند ، ط1 ، المكتبة العصرية ، لبنان ، 1428هـ ، ص (181) .
(2) العلوي ، هادي : المنتخب من اللزوميات نقد الدولة والدين والناس ، ط1 ، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي ، دمشق ، 1990م ، ص (7- 8) .
(3) ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ط9 ، دار المعارف ، مصر ، 1976م ، ص (399) .
(4) عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ط1 ، دار الفارابي ، لبنان ، 2008م ، ص (376) .
(5) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المعري ، ط1 ، دار صادر ، لبنان ، 1427هـ ، المجلد الأول ، ص (21) (المقدمة) .
(6) المصدر نفسه ، ص (20) (المقدمة) .
(7) المصدر نفسه ، ص (26) (المقدمة) .
(8) المصدر نفسه ، ص (5) (المقدمة) .
(9) المصدر نفسه ، ص (18) (المقدمة) .
(10) المصدر نفسه ، ص (20) (المقدمة) .
(11) المصدر نفسه ، ص (21) (المقدمة) .
(12) المصدر نفسه ، ص (21) (المقدمة) .
(13) المصدر نفسه ، ص (27) .
(14) المصدر نفسه ، ص (30) .
(15) المصدر نفسه ، ص (32) .
(16) المصدر نفسه ، ص (34) .
(17) عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ص (388) .
(18) المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري : يشتمل على وصف المهرجان الذي أقامه المجمع العلمي العربي لذكرى مرور ألف سنة على مولد أبي العلاء وما قيل فيه من القصائد والخطب ، ط2 ، دار صادر ، لبنان ، 1414هـ ، ص (37) .
(19) فخر الدين ، جودت : شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري ، (د.ط) ، منشورات دار الآداب ، لبنان ، 1984م ، ص (158) .
(20) خليف ، يوسف : في الشعر العباسي نحو منهج جديد ، (د.ط) ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (د.ت) ، ص (222) .
(21) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (51) .
(22) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (289) .
(23) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (34) .
(24) السامرائي ، إبراهيم : دراسات في تراث أبي العلاء السامرائي ، ط1 ، دار الضياء ، الأردن ، 1409هـ ، ص (27) .
(25) عبد العظيم ، محمد : الإبداع ولزوم ما لا يلزم في الأدب ، ص (475) .
(26) المعري ، أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (314) .
(27) طاهر ، محمد : مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها ، ط1 ، دار الفكر ، سوريا ، 1407هـ ، ص (125) .
(28) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات , المجلد الأول , ص (239) .
(29) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (49) .
(30) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (304) .
(31) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (27) .
(32) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (313) .
(33) ضيف ، شوقي : الفن ومذاهبه في الشعر ، ص (405) .
(34) ابن سنان الخفاجي ، عبد الله بن محمد : سر الفصاحة ، (د.ط) ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة ، 1372هـ . ص (195) .
(35) ابن الأثير ، نصر الله بن محمد : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، حققه كامل محمد ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1419هـ ، المجلد الثاني ، ص (297) .
(36) زيدان ، عبد القادر : قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، ط1 ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، الجزء الثاني ، 2006م ، ص (75) .
(37) قطري : قطري بن الفجاءة .

(38) نجدة : نجد بن عامر الحروري .
(39) شبيب : شبيب بن يزيد .
(40) بقراط : طبيب يوناني مشهور .
(41) جالينوس : طبيب يوناني مشهور .
(42) المعري , أحمد بن عبد الله : اللزوميات , المجلد الأول , ص (65) .
(43) كنجيان ، علي : مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم ، ط1 ، الدار الثقافية للنشر ، مصر ، 1422هـ ، ص (116) .
(44) نبيه ، محمد : بلاغة الكتاب في العصر العباسي , ط2 , مكتبة الطالب الجامعي ، مكة ، 1406هـ ، ص (176) .
(45) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (86) .
(46) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، 1983م ، ص (223) .
(47) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات , المجلد الثاني , ص (139) .
(48) المصدر نفسه ، ص (159) .
(49) الطرابلسي ، محمد الهادي : خصائص الأسلوب في الشوقيات ، (د.ط) ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس ، 1981م ، ص (68) .
(50) الجرجاني ، عبد القاهر : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه محمود محمد ، ط1 ، دار المدني ، جدة ، 1412هـ ، ص (11) .
(51) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (175) .
(52) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (220) .
(53) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (142) .
(54) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (308) .
(55) المصدر نفسه ، ص (101) .
(56) المصدر نفسه ، ص (96) .
(57) المصدر نفسه ، ص (34) .
(58) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (222) .
(59) المعري , أحمد بن عبد الله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (289) .
(60) المصدر نفسه ، المجلد الأول ، ص (200) .
(61) أنيس ، إبراهيم : موسيقى الشعر ، ط2 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، 1952 م ، ص (276) .
(62) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (127) .
(63) المصدر نفسه ، ص (112) .
(64) المصدر نفسه ، ص (35) .
(65) المصدر نفسه ، المجلد الثاني ، ص (289) .
(66) حسين ، طه : مع أبي العلاء في سجنه المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين ، ط2 ، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة ، لبنان ، 1983م ، ص (423) .
(67) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، ص (5) (المقدمة) .
(68) حسين ، طه : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص (228) .
(69) ضيف ، شوقي : فصول في الشعر ونقده ، ط2 ، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) ، ص (112) .
(70) عبد المعطي ، محمود علي : تجليات الإبداع الأدبي دراسات في العصر العباسي الثاني ، ط1 ، دار النشر الدولي ، الرياض ، 1428هـ ، ص (256) .
(71) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الأول ، ص (51) .
(72) العقاد ، عباس محمود : رجعة أبي العلاء المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ عباس محمود العقاد ، ط1 ، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ، 1980م ، المجلد الخامس عشر ، ص (326) .
(73) زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، ط1 ، دار نوبليس ، لبنان ، 2003م ، المجلد الأربعون ، ص (97) .
(74) الزيات ، أحمد بن حسن : تاريخ الأدب العربي ، ط28 ، دار الثقافة ، لبنان ، (د.ت) ، ص (350) .
(75) المعري ، أحمد بن عبدالله : اللزوميات ، المجلد الثاني ، ص (217) .